جاك بيرك ومقاله الأخير"أي إسلام" (Quel Islam ?)

د. أبو عمران الشيخ*

أعدت جامعة الجزائر مشكورة هذه الندوة تكريما للعالم الكبير "جاك بيرك". إنه يعتبر بحق من أبرز العلماء الأوروبيين الذين كرّسوا حياتهم لدراسة الثقافة العربية والإسلام مثل "لويس ماسينيون..."و"ريجيس بلاشير" و"لويس غارديه" و"منصور فانسان مونتاي" إلاّ أن "جاك بيرك"يمتاز بصفات خاصة لا نجدها إلا نادرا في غيره.

اعتنق ثقافتنا من صغره حيث تربّى فيها إذ ولد بمدينة فرندة (ولاية تيارت) سنة 1910 وتعلّم فيها اللغة العربية إلى جانب الفرنسية وعاش في مجتمع إسلامي بقي وفيا له طول حياته وامتاز بمؤلفات كثيرة وبمواقف جريئة لم يكتف بتخصص واحد بل جمع بين عدّة تخصصات منها علم الإجتماع بالدرجة الأولى والتاريخ والآداب والقانون والسياسة وعلم

*. رئيس المجلس الإسلامي الأعلى.

النفس والترجمة وغير ذلك... إذكانت ثقافته واسعة بل موسوعية وسيكتشف الباحثون ذلك عندما يفحصون مكتبته العظيمة التي وهبها لمدينة فرندة فحولتها زوجته إليها بعد وفاته. من كتبه المشهورة أذكر خاصة "**المغرب بين حربين**"[1] "**المغرب من الداخل**"[2] "**وعلماء المغرب المؤسسون والمتمردون**"[3] ثم "**العرب بين الأمس واليوم**" [4] و"**أندلسيات**"[5] و"**من الفرات إلى الأطلس**"[6]. وترجم "**المعلقات العشر**"[7] إلى الفرنسية. و"**الإسلام في زمان العالم**"[8]. وقدم لنا ترجمة "**القرآن الكريم**"[9] وهي التي أخذت منه سنوات.وفي نهاية نشر مذكراته التي سمّاها "**مذكرات الضفتين**"[10] أي ضفتي البحر الأبيض المتوسط. وأسبوعا قبل وفاته في شهر جوان 1995 نشرت له دورية سويسرية مقاله الأخير بعنوان "**أي إسلام ؟**" (Quel Islam ?) وهو الذي ضمنه حصيلة نشاطه الفكري والعلمي ولخص فيه مجمل آرائه في الإسلام والثقافة العربية وبما أن المقام لا يتسع لتحليل كل هذه المؤلفات، فأكتفي هنا بدراسة هذا المقال نظرا لأهميته واختصاره وقد طبعته "**دار سندباد**". (Sindbad, Paris, 2003) وأصبح في متناول الجميع.

1. Le Maghreb entre deux guerres, le Seuil, 1960.
2. L'intérieur du Maghreb, Gallimard, 1978.
3. Oulémas fondateurs et insurgés du Maghreb, Sindbad,1982 er 198.
4. Les Arabes d'hier à demain, Sindbad,1973 et 1979.
5. Andalousies, Sindbad, 1982.
6. De l'Euphrate à l'Atlas, Sindbad,1978.
7. Les dix grandes odes arabes de l'Antéislam, Sindbad, 1979 et 1996.
8. L'Islam au temps du monde, Sindbad,1987 et 2002.
9. Mémoires des deux rives, Seuil, 1989.
10. Essai de traduction du Coran, Sindbad, 1991.

في البداية يمكن أن نتساءل : ما معنى هذا العنوان ؟ ولماذا اختاره جاك بيرك ؟ لعلّ المؤلف اختار هذا العنوان بعد اجتماع منظمة المؤتمر الإسلامي بمدينة الدار البيضاء (1994) الذي شاركت فيه عدّة شعوب إسلامية وتحدّثت بعدة لغات. وهكذا ظهرله الإسلام واحدا في أصوله متعددا في شعوبه متنوعا في ثقافته حيث صار منتشرا في مختلف القارات. ولاغرابة في ذلك لأن الإسلام يعدّ من الديانات والحضارات العالمية. كانت الخلافة رمز هذه الوحدة الإسلامية إلى أن ألغاها **"أتاترك"** بعد الحرب العالمية الأولى سنة 1924 (ص.27). ورغم ذلك بقيت هذه الوحدة متماسكة ويحتفل بها المسلمون في كل مناسبة سواء في موسم الحج السنوي أو في صيام رمضان وما إلى ذلك... والجدير بالملاحظة أن ظاهر الوحدة والتنوع موجود أيضا في الدين المسيحي الذي نشاهد فيه الكنيسة الكاثوليكية وكنائس أخرى واعتقنتها عدّة شعوب في العالم لها لغات عديدة.

وإذا انتقلنا إلى مضمون المقال ذاته يمكن أن نرتب آراء جاك بيرك فيه على النحو التالي : **أوّلا** : إنصافه للإسلام والثقافة العربية **وثانيا** : انتقاد جاك بيرك لبعض المظاهر الإسلامية **وثالثا** : الإصلاحات التي يراها جاك بيرك ضرورية ليواكب الإسلام العالم الذي نعيش فيه اليوم.

1. رفض جاك بيرك في البداية بشدة انتماءه إلى **"المستشرقين"** وفضّل أن يلحق **"بدارسي الإسلامي"** (islamologues) والذين يحسنون اللغة العربية (arabisants) إذ رأى في الإستشراق نظرة أحادية للغرب وحذّر من هذا الخطأ الذي وصفه بالتركيز على الفكر الأوروبي أساسا

(eurocentrisme) فنسب له الغرب مفاهيم ليست صحيحة واتهمه بالتواكل (fatalisme) في حين أن القرآن الكريم يعترف صراحة بحرية الإنسان وبمسؤوليته الكاملة (ص. 17).

وسجل كذلك خطأ آخر وقع فيه الغرب وهو أن الإسلام دين التعصب (fanatisme) (ص. 25) وحرّف الغرب أيضا مفهوم الجهاد إذ ترجمه **بالحرب المقدسة** فخلط بين الجهاد والحرب التي لها ضوابطها الخاصة ومن المعروف أن الجهاد الأكبر هو جهاد النفس والتغلب على أهوائها والإسلام يتّسم فعلا بالتسامح والحوار والتضامن بين الأفراد والجماعات واستشهد بيرك بحضارة الأندلس التي شاركت فيها العربية واللاتينية واليونانية والعبريةوخلاصة القول إن الجهاد أو الاجتهاد هو عنصر التطور والتقدم ورأى بيرك من المفيد أن يقتدي المسلمون بعلمائهم الكبار مثل ابن رشد الذي أكّد التكامل بين العقيدة والعقل وابن خلدون والأفغاني ومحمد إقبال الذين آمنوا بالتطور وضرورة التكيف مع العصروبصفة عامة قد شوه الغرب صورة الإسلام فاعتبره "متمرد" (réfractaire) واتهمه بالعنف (ص. 25-26) والجمود (الأمر الذي يفسّر في نظرة الغرب موقف الفلسطينيين) وهذا مجرد مغالطة إذا المقاومة الفلسطينية مشروعة ضد الاحتلال الاجنبي ص. 25 وذكر بيرك بأن العنف ظهر اولا في الحروب الصليبية وفي التوسع الاستعماري فيما بعد. في الحقيقة إن التسامح الإسلامي قد برز في رجال عظماء منهم صلاح الدين الأيوبي والأمير عبد القادر وغيرهما كثير.

إن جاك بيرك اجتهد في عدّة مناسبات في التعريف بالإسلام على حقيقته وميز بين الإسلام الذي درّسه وعرّف به، والإسلام السياسي الذي ظهر في عصرنا وانحرف عن الصواب في حين أن الغرب لم يفرق بينهما (ص. 27) وهي مغالطة واضحة غير مقبولة إطلاقا ؛ إن الإسلام شيء والعنف شيء آخر.

2. لم يجامل بيرك المسلمين بل وجّه إليهم بعض الانتقادات منها أن الاجتهاد توقف في القرن العاشر وقد ساد الركود في الثقافة الإسلامية العربية (ص. 23) وكان من واجبهم أن يواكبوا الحضارة العالمية. تفوّق عليهم الغرب بالتكنولوجيا والصناعة وعليهم أن يواجهوا هذا الواقع، إذ العولمة اجتاحت اليوم كل الشعوب والحضارات. إلاّ أنّه اعترف في مكان آخر بأن الإسلام يشكل الهوية لمعظم الشعوب الإسلامية (ص. 29) وهو عنصر مقاومتهم للاستعمار الذي شوه صورتهم وحاربهم في عقر ديارهم. (ص. 15) فسجّل مجهود النهضة الحديثة والإصلاحات التي تّمت في العالم العربي- الإسلامي إلاّ أنه اعتبرها غير كافية في نظره فوضعية المرأة مثلا ما زالت تعاني من التخلف (ص. 29-32) رغم ارتفاع نسبة المتعلمات بعد استقلال البلاد العربية الإسلامية. واقترح أيضا أن يفرق المسلمون بين الدين والسياسة (ص. 16) وبعد ذلك تعرّض إلى الجاليات الإسلامية التي تعيش في العالم الغربي ونصحها بالتكيف مع الواقع الذي تعيش فيه (ص. 36) ولا يليق بها أن تنـــزوي على نفسها غير متفاعلة مع المحيط الذي انتقلت إليه.

وفي الختام يجدر بنا أن نعترف بفضل الأستاذ جاك بيرك علينا وعلى العالم العربي-الإسلامي. قد وقف معنا أيام المحنة فكان من أنصار استقلال الجزائر وأيدها بالقلم والكلمة وأيّد حق الشعب الفلسطيني والشعوب المظلومة في تقرير مصيرهما وأراد لنا الخير ونصحنا كما ينصح الصديق أصدقاءه دون أن يفرض علينا رأيه كما فعل غيره. إنه كما صرّح أكثر من مرّة هو نفسه "رفيق طريقنا" فهو الصديق الوفي الذي لم تغيره الظروف السياسة. فتأثر بحضارته الأصلية وهو أمر طبيعي وحبذا أن نأخذ منها الكثير وهذا أمر طبيعي أيضا واعترف لنا بحرية الاختيار بناء على خصوصياتنا الحضارية وهذا الموقف من شيم العظماء الذين لا يتنكّرون للحق ولا للواقع ويبقى اسمه حاضرا في ذاركتنا وعند الذين عرفوه أو قرأوا له كثيرا وكان فعلا من المفكرين الذين يستحقون التقدير لأنه انغمس في حضارتنا محافظا على أصالته واعتمد الحوار والتفاهم بين الثقافات والحضارات وهذا ما نؤمن به ونعمل من أجله اليوم بعون الله شريطة أن يكون هذا الحوار مبنيا على الاحترام المتبادل.